

خواطر في منهج الدعوة إلى الله

بقلم : أبي عبد الرحمن بن علي

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
أما بعد: فإن الدعوة إلى الله تعالى والعمل في إصلاح المجتمعات أمر بالغ الأهمية ؛ إذ به
صارت هذه الأمة خير الأمم ؛ قال تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ، وفي عصرنا قام بهذا الواجب - واجب
الدعوة إلى الله - كثير من الأفراد والجماعات إلا أنهم اختلفوا كثيراً في المناهج التي
سلكوها والسبل التي نهجوها في إصلاح الشعوب والمجتمعات ، ولا شك أن أفضل منهج
في الإصلاح هو منهج النبي عليه الصلاة والسلام ؛ إذ هو المنهج المتلقى عن الوحي
، والذي من خلاله ربي النبي عليه الصلاة والسلام جيل الصحابة ، ذلكم الجيل الفريد ، فلا
يسع لمن أراد الإصلاح إلا أن ينهج ذلك المنهج.

إن علينا أولاً وقبل كل شيء أن نقول : إن توحيد الله عز وجل كان هو أول شيء دعا
إليه النبي عليه الصلاة والسلام الناس ، ويعنى ذلك أن قضية إفراد الله بالعبادة ونبذ كل
معبود سواه هي القضية الأم في دين الإسلام ، وهو دين كل الأنبياء والمرسلين .

ولقد رسخت النصوص الشرعية من أول يوم أنه لا يوجد من له حق في تدبير شؤون
الحياة إلا الله سبحانه وتعالى ؛ ذلك لأن الله تعالى هو خالق هذا الكون بكل ما فيه ومن
فيه ، ولما كان هو الخالق فهو الذي له حق الأمر والنهي ، كما قال تعالى: (ألا له الخلق
والأمر تبارك الله رب العالمين) الأعراف : 54 .

إننا نستخلص من هذا الأساس أننا يجب أن ننطلق في دعوتنا إلى الله من منطلق التركيز
أولاً على وجوب طاعة الله في كل أمر دون استثناء ، وأن من الخطأ أن نبدأ طريق
الإصلاح مع إهمال قضية التوحيد .

مثال ذلك أن يدعو الإنسان إلى نبذ ما يخل بالشرف كالسفور والاختلاط والزنا ، فلا
شك أن من يبدأ بمثل هذه القضية سيجد من يقف في صفه ويهتف بنفس شعاره ، حتى

إذا ما أراد الانتقال إلى نبد المعاملات الربوية مثلاً وجد صديقه الذي كان معه في القضية الأولى هو أول من يخالفه الرأي.

وسبب ذلك أنهما لم يتفقا أولاً على الأساس الذي عليه تبني الآراء والتوجهات ، وأننا حينما ندعو إلى نبد التبرج والسفور مثلاً فإنما نستند في دعوانا إلى كون ذلك مما حرمه الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ليس فقط لأخطاره الاجتماعية وأضراره النفسية .

لقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته بقضية التوحيد، فلما استقرت تلك القضية في النفوس وبدأ فرض الأحكام المختلفة ، صار الناس يستسلمون لأي حكم يأتيهم به النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم يعلمون أنه من عند الله.

ولعل من القضايا التي يركز عليها اليوم في بعض ساحات الدعوة قضية الحرية ، خاصة حرية التعبير ؛ فإن بعض الإسلاميين يقولون مثلاً إننا إن وصلنا إلى إقرار حرية التعبير فسوف يمكننا أن نمارس الدعوة إلى الله دون ضغوط أو قيود .

وفي الطريق للوصول إلى هذه الحرية تجتمع الألوان المختلفة ، فالملحد الذي يريد حرية التعبير حتى يهاجم الإسلام يقف بجانب المسلم الذي يريد حرية التعبير ليدعو إلى الله .

فهل كان هذا هو المنهج الذي اتخذته النبي عليه الصلاة والسلام؟

إن النبي عليه الصلاة والسلام لم يرض وهو في أول أيام الدعوة بأنصاف الحلول ، وقد كان بوسع أن يصل إلى المال والملك والجاه ، كما يريد هؤلاء أن يصلوا إلى الحرية لكن أي ثمن يطلب منا في مقابل ذلك ؟

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد كان الثمن الذي سيدفعه هو الكف عن الدعوة إلى لا إله إلا الله ، وأما هؤلاء فما الشرط الذي يشترطه الملحد وأمثاله للسير جنباً إلى جنب مع المسلم؟ إن الثمن هو نفس الثمن وهو التنازل عن مضمون لا إله إلا الله ، إلا أن الألفاظ والعبارات قد تختلف ؛ فالمسلم الذي يريد أن ينال حرية التعبير عليه — حتى يستأنس بصديقه الملحد — أن يعاهد البشرية بأنه لن يمنع الملحد عن الدعوة إلى إلحاده بل سيوفر له كل ما يحتاجه لكي يدعو إلى ذلك الإلحاد .

فهل يقول عاقل إن مثل هذا المسلم لم يتنازل عن المعنى الحقيقي لكلمة : لا إله إلا الله ؟

وقدوتنا عليه الصلاة والسلام قد رفض كل تلك الإغراءات وسار في طريقه معتمداً على الله حتى أتم الله له أمره، وأبجز له وعده .

إن الدعوة إلى التوحيد واضحة وجلية من أول خطواتها، وعلاقتها مع أي دعوة مغايرة لها كعلاقة الزيت والماء لا يختلطان أبداً .

وإن من سنن الله الواضحة أنه متى تنازل المرء عن بعض ثوابت الإسلام مرة فإن ذلك سيجره إلى مسلسل من التنازلات التي لا تنتهي .

لكن هل يعنى ذلك إظهار التصادم مع المجتمع المناوى للإسلام؟

إن سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام تجيب بكل وضوح أن الدعوة إن لم تصل إلى مرحلة تستطيع الصمود فيها فإن عليها أن تكف عن المواجهة إلى أن تقوى شوكتها.

فقد كانت الدعوة سراً في أول أيامها بل في السنين الثلاثة الأولى وقد أمر الله المؤمنين أن يكفوا أيدهم عن القتال طيلة العصر المكى .

فالإصلاح له مراحل وكل مرحلة لها وسائلها بحسب قدرة المسلمين وقوتهم كما يظهر ذلك من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ثم بعد ذلك نستخلص أمراً آخر وهو أنه لو وقع تصادم ما فإن أول من سيضار المستضعفون الذين لا سند لهم. وفي تلك الحال تتجلى مسؤولية من يستطيع الصمود إما لمكانة أو لمال أو غير ذلك، وهكذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما أعتق بالالا رضي الله عنه.

ومن خلال ما سبق يمكن أن نلخص بعض النقاط المهمة في قضية الإصلاح وهي على النحو التالي :

- الدعوة الإسلامية هي في الأصل دعوة إلى الاستسلام لله وحده والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله .

- أساليب هذه الدعوة تكون في كل مرحلة بحسب قدرة المسلمين والظروف المحيطة بهم .

- يجب أن يكون في المقدمة من يستطيع الصمود والمصابرة فيعين الضعفاء ليس بالكلام فقط، ولكن بالمساعدة العملية.

- وإن كل نقطة من هذه النقاط في حاجة إلى من يترجمها ترجمة عملية حسب المرحلة الراهنة.

- وقبل ذلك كله يجب أن يكون العمل كله خالصاً لوجه الله تعالى، ووفق سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وعلى منهج الصحابة ومن تبعهم بإحسان.
نسأل الله العلي القدير أن يردنا والمسلمين أجمعين إلى دينه رداً جميلاً آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.